لمحة عن الجغرافية الطبيعية للشرق الأوسط

للأستاذ محمد عبد نصر

مقدمة :

في هذه المحاولة المتواضعة ، التي أرسم فيها صورة مبسطة للجغرافية الطبيعية لمجموعة دول الشرق الأوسط ، لا أقول إن هناك — بالضرورة — تشابها إقليميا فيما بينها وبعضها وبعض . فلكل قطر منها كيانه الخاص من الناحية الإقليمية . ما في ذلك شك . ولكن هذا لا ينفي أن هناك رباطا متينا يربط تلك الأقطار بعضها ببعض ، ويكون من مجموعها منطقة لها صفاتها المميزة بين المناطق الكبرى التي ينقسم إليها العالم . وهذا الرباط مكون من عناصر كثيرة متآلفة ، منها ما هو طبيعي كالمناخ والتضاريس والنبات إلخ . ومنها ما هو بشري كاللغة والدين والثقافة ووحدة الآلام والآمال . فإذا راعينا هذا وحققنا ما نحاول تصويره ، فقد وصلنا إلى ما ينبغي أن تكون عليه الدراسة الجغرافية أيا كان منهاجها ، وحققنا مبدأ « الوحدة في الاختلاف Diversity within unity » الذي يجب أن تسمو إليه كافة الدراسات .

ويتضح أنه لزام على كل مثقف من شعوب الشرق الأوسط أن يتعمق في دراسته لشئون أقطاره المختلفة ، يتعرف الأسس والأصول التي يستطيع أن يفسر بها مجريات الحوادث التي تتدافع في دوله ، وكلها ذات نواح جغرافية ، إذ الظاهرات الطبيعية أولى تلك الأسس والأصول التي يجب البدء بها في دراساتنا .

وسنقصر الكلام الآن على الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة العربية (بما

في ذلك الشام والعراق) مرحلين مجموعة الدول الشمالية الشرقية (تركيا - إيران إلخ ...) والمملكة المصرية إلى مقال لاحق .

تقع شبه الجزيرة العربية في جنوب غربي قارة آسيا. بين خطى عرض ٣٠ر٣٤° ، ٤٥ر١٢° شمالا . وخطى ٣٠°ر٣٢° و ٦٠° شرق . ويحدها في الغرب البحر الأحمر. وجنوبا خليج عدن والمحيط الهندى ، وشرقا خليج عمان والخليج الفارسى . أما حدودها الشمالية فصعبة التحديد ، فإذا اعتبرنا شبه جزيرة العرب نفسها يكون هذا الحد قوساً يتجه نحو الشمال، ويبدأ من العريش . ثم يمر بحدود فلسطين الجنوبية . ثم يتجه شمالا حتى مدينة تدمر ، ثم شرقا حتى حدود العراق ، ثم إلى الجنوب الشرقى حتى مصب شط العرب. أما إذا أدمجنا العراق والشام ، فإن الحد يندفع إلى الشمال حتى يتاخم هضاب أرمينيا والأناضول .

هذا الموقع يجعل من بلاد العرب معبراً تمر به الطرق بين قارتى آسيا وإفريقيا وبين هذه وأوربا من جهة ، والشرق الأقصي من جهة أخرى . وأيضاً الطريق البرى بين أوروبا وإفريقية . وقد كان لانتشار الصحراء فى قلب بلاد العرب أن صعب اختراقها ، واقتصرت الطرق على « الهلال الخصيب » الذى يمتد من البحر المتوسط حتى الخليج الفارسى ، بحيث أصبحت الدولة التي تبسط نفوذها عليه ذات مركز ممتاز من أقدم العصور من الناحيتين الحربية والدولية .

فالعزلة فى بلاد العرب تكاد تكون قاصرة على الجهات الصحراوية فيها كالربع الخالى، وصحراء النفود وهى البقاع القاحلة الجافة . أما فيما عدا ذلك فالاتصال سهل فيما بين أقسام بلاد العرب بعضها ببعض وفيما بينها وبين العالم الخارجى .

البنية :

ليس في بنية بلاد العرب تعقيد كثير ، فإذا استثنينا عمان وهي في بنيتها وجيولوجيتها تنتمي إلى هضبة إيران الالتوائية في الناحية المقابلة للخليج الفارسي، نجد أن بلاد العرب هضبة رصينة أساسها صخور نارية قديمة متبلورة كالجرانيت. وهذه الصخور ظاهرة في مساحات واسعة في الحجاز ، وفي مرتفعات البحر الأحمر ، وفي المرتفعات الداخلية . أما في الشمال والشمال الشرقي ، أي في مساحات كبيرة من شمال شبه الجزيرة والشام وصحراء الشام ، فتغطي هذه الصخور النارية القديمة صخور جيرية طباشيرية ملتوية قليلا . وإلى الشمال من هذه البقاع يحل محل هذه الطبقات الجيرية ، طبقات أخرى أحدث منها حتى نصل إلى الجبال والهضاب الإلتوائية في الأناضول وأرمينيا وإيران .

وهناك كثير من الصخور البازلتية (أو اللافا البركانية) في جهات كثيرة من بلاد العرب . تشير إلى ثوران البراكين في العصور الجيولوجية الحديثة وأكبر مساحة لها في هضبة اليمن . أما سهول الفرات ودجلة فهي سهول رسوبية كونها هذان النهران ، وهي تمتد تدريجا في الخليج الفارسي . فلقد كانت البصرة في القرن الرابع قبل الميلاد ، واقعة إلى مسافة قليلة من البحر ما الآن فقد انحسر عنها بما يجلبه هذان النهران من الرواسب . أما البحر الأحمر فهو انكسار أخدودي يمتد شمالا في خليج العقبة والبحر الميت ووادي نهر الأردن .

التضاريس

وبلاد العرب هضبة مرتفعة تنحدر بالتدريج من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، وتبلغ أقصى ارتفاع لها في الجنوب الغربي (اليمن) ، فترتفع الهضبة

رتفاعا فجائيا من ساحل البحر الأحمر إلى بضعة آلاف من الأمتار (٢٠٠٠ – ٨٠٠٠ قدم) ولا تترك إلا سهلا ساحليا ضيقا لا يتجاوز عرضه ٣٠ ميلا . وانحدار الهضبة من الجنوب الغربي والغرب إلى الشمال الشرقي والشرق منتظم وتدريجي . حتى تصل إلى سهول العراق . ولا يشذ من هذه القاعدة الا الجبل الاخضر في عمان الذي يطل على خليج عمان .

وتضاريس الشام تستحق عناية خاصة : فعلى طول الساحل . خصوصا في فلسطين . يوجد سهل ساحلي . يليه نحو الداخل سلسلة من المرتفعات تمتد من الشمال إلى الجنوب وتعرف بجبال لبنان في الشمال . ومرتفعات غرب فلسطين في الجنوب . ثم يلي ذلك منخفض طولي يشغله نهر العاصي في الشمال . ونهر الاردن والبحر الميت في الجنوب . ويلي ذلك شرقا سلسلة جبلية أخرى تسمى الجبل الشرقي في الشمال . ومرتفعات شرق الاردن في الجنوب . ثم يلي هذا نحو الشرق الهضبة الكبرى نفسها.

أما سهول العراق فرسوبية ارتفاعها ٥٠٠ قدم في المتوسط وهي نتيجة للرواسب الكثيرة التي جلبها ويجلبها دجلة والفرات من المرتفعات الشمالية لهضبة أرمينيا.

ويلاحظ أن للجفاف السائد في معظم بلاد العرب أثراً كبيراً في سطحها فيمتاز بالرمال التي تغطي كثيراً من أجزائه . وبالشكل القبابي الذي نشاهده في الجبال الصحراوية عامة، وبالكثبان الرملية المتنقلة والوديان الجافة . وكل هذه تجعل للصحراء طابعاً خاصا في كون تضاريسها محلة ليس فيها ذلك التنوع والانتقال الفجائي من مرتفع إلى منخفض، إذا استثنينا الجهات الشمالية في شمال العراق وبلاد الشام في جهاتها الساحلية الجبلية .

المناخ

وبلاد العرب قريبة من خط الاستواء ، ولذلك فحرارتها شديدة، خصوصاً في فصل الصيف لاسيما إذا راعينا خلو معظم جهاتها من الغلاف النباتي ، وبهذا

تعتبر بلاد العرب من أشد جهات العالم حرارة ، خصوصاً عند ساحل الخليج الفارسي وساحل البحر الأحمر الجنوبي ، حيث تقترن الحرارة بالرطوبة ، مما يجعل الجو غير ملائم لسكنى الأوربيين ، ومع ذلك ففي الداخل — في وسط وشمال بلاد العرب — حيث يبلغ متوسط ارتفاع السطح ٣٠٠٠ قدم، نجد أن أيام الصيف الشديدة الحرارة يعقبها الليل المعتدل البارد ، أما الشتاء فجوه جميل منشط منعش لاعتداله ، وكذلك الحال في مرتفعات عسير واليمن وعمان . وفيها حرارة الصيف أقل شدة في المتوسط . أما الشتاء فبارد بوجه عام.

وفي البقاع الصحراوية الشمالية نجد أن الفرق كبير جداً بين حرارة الصيف والشتاء ، وبين حرارة النهار والليل . أي أن كلا من المدى السنوي واليومي للحرارة كبير . ففي الحائل (في صحراء النفود على خط ٢٨° شمالا تقريبا) قد تنخفض درجة الحرارة شتاء من ٣٥°م بعد الظهر ، إلى مادون الصفر بكثير في الليل . وبينما نجد الصيف في المدينة حاراً جداً ، فقد تتجمد المياه فيها في ليالي الشتاء . أما في اليمن فيلطف الارتفاع والأمطار الموسمية من قيظ الصيف .

وتأثير البحر ملموس بالشام وخصوصاً في الجهات الساحلية ، وتغطي الثلوج قمم الجبال في مرتفعات لبنان ، خصوصاً في الشتاء ، والجو عموماً معتدل شتاء (حوالي ١٣°م) حار صيفا (٢٨°م) . أما العراق فأكثر قارية فهو معتدل بارد في الشتاء كالشام . ولكنه في الصيف حار جداً (أكثر من ٣٠°م) .

وبلاد العرب واقعة في منطقة الضغط المرتفع المداري ، وتعتبر امتداداً شرقيا للصحراء الكبرى ، ولذلك فهي — بوجه عام — ذات أهوية ساكنة وتيارات هوائية نازلة في معظم أيام السنة (عدا الصيف) إلا أن الأطراف الشمالية والجنوبية معرضة لهبوب رياح من الغرب في الشمال ومن الشرق عند الساحل الجنوبي وتهب على الشام والعراق أعاصير البحر المتوسط شتاء ، أما اليمن فتهب عليها الرياح الرسمية الجنوبية الغربية صيفا .

وقلما تسقط الأمطار فى قلب بلاد العرب . أما فى الشمال فيسقط قليل من المطر فيما بين أكتوبر وإبريل . ويزداد كلما اتجهنا شمالا حتى الشام والعراق حيث تهب الرياح العكسية بأعاصيرها المعتدلة الممطرة . ويسقط فى العراق الأدنى ما يقرب من ١٠ بوصات من المطر . وفى غزة ٥ ر١٦ بوصة وفى يافا ٢٣ بوصة ، وفى حيفا ٢٧ ، وفى بيروت ٧ ر٣٥ . بينما يطول فصل سقوط المطر أيضا من الجنوب إلى الشمال ، فعدد الأيام الممطرة فى غزة ٤١ يوماً ، وفى يافا ٥٩ ، وحيفا ٦٢ . وبيروت ٨٢ . وأما اليمن فأمطارها صيفية من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، التي تهب على الحبشة أيضا فتسقط الأمطار على الحبشة واليمن سواء ، ولا بد للرياح الموسمية من مرتفعات تقابلها لتسقط أمطارها عليها . لهذا نجد أن ساحل تهامة يكاد يكون عديم المطر فى الوقت الذى تسقط فيه الأمطار على المرتفعات الجنوبية الغربية لليمن . (يونيه ٤ بوصات ، ويوليه ٥ ر٥ ، وأغسطس ٨ ر٥ ، وسبتمبر ٩ ر١) وفى عدن ما يقرب من ٣ بوصات فى هذه الشهور الاربعة .

النبات

وليست بلاد العرب كلها صحراء قاحلة ، بل يمكن تمييز الأقسام الآتية فيها :

(١) صحراوات يجب على عابريها أن يتزودوا بالماء والطعام فى سفرهم فيها (٢) أقاليم حشائش فقيرة أو شبه صحراء أو استبس (٣) واحات وأراضى زراعية .

والصحراوات أنواع : فالدهناء سهول من الحصى والحصباء تتخللها مساحات وشقات من الرمال ، وبالرغم من احتمال وجود الماء على عمق كبير ، إلا أنها فواصل قاسية فى وجه المسافرين . والنفود : مساحات واسعة من الحصى والحصباء

حولتها الرياح إلى كثبان رملية . واحد وراء الآخر . أما الأحقاف: فأرض الكثبان الرملية . والرمال الناعمة ولا يمكن عبورها إلا في مناطق ضيقة . لصعوبة السير فيها . أما الحرة : فاسم يطلق على المساحات البازلتية ويدمى نعل من يمشي عليها كما تقطع أخفاف الجمال . وأكبر مساحة للأقاليم الصحراوية توجد في الجنوب (الربع الخالي أو ديار عاد) وتفصل السواحل فصلا تاماً عن قلب بلاد العرب ، كما تفصل صحراء النفود الشام عنه. ويلاحظ أن الصحراوات تحتضن وسط بلاد العرب على شكل قوس محدب من جهة الخليج الفارسي .

وأما شبه الصحراء أو الصحراء الاليفة كما تدعى أحيانا: وهي الغالبة في بلاد العرب ، فجهات سطحها إما جامد أو متربة . مستو أو مموج ، به آبار وعيون طبيعية متناثرة وحشائش دائمة النمو في المنخفضات . ويعيش عليها قبائل البدو يرعون إبلهم وأغنامهم.

وأما الواحات والأراضي الزراعية فتقع في إقليمين : (ا) في الوسط الذي حوله توجد الصحراوات (ب) على السواحل وفي الهلال الخصيب

(١) في وسط بلاد العرب ، أو في إقليم نجد . توجد ثلاث مجموعات من الواحات. متصلة بعضها ببعض إلى حد كبير : أولاها جبل شمر ، ويستمد مياهه من مرتفعين، وبه مدينة الحائل والفيض ، وحوالى عشرين قرية . وثانيتهما قاسم وترجع خصوبتها إلى المياه الأرضية الدائمة الآتية من وادى الرمة وبه بلدتا عنيزة والبريدة ، والاسواق التجارية في قلب بلاد العرب ، وحوالى خمسين قرية أخرى . أما الثالثة فهي نجد أكبرها وأهمها إلى درجة أطلق معها اسمها على كافة قلب بلاد العرب وأكبر بلدانها الرياض وتقع في الواحة الوسطي .

ب ـــ أما الأراضي الخصيبة التي تحف ببلاد العرب، ففي اليمن والجنوب الشرقي، كما توجد في الشام والعراق ، حيث الزراعة والاستقرار . ففي الشرق توجد

قبائل مستقرة فى الأحساء والكويت على شواطىء الخليج الفارسي . ومثل ذلك على سواحل خليج عمان (إقليم الباطنة) . أما الساحل الجنوبى فصحراوى حتى خط طول ٥٠° شرقا ، وبعد ذلك نجد بقاعا خصيبة خضراء تمتد نباتاتها فى الوديان الممتدة من الهضبة فى الداخل نحو الساحل . أما فى اليمن وعلى الشواطىء الجنوبية للبحر الأحمر ، فيوجد إقليم ساحلى منخفض خصب فى فتحات الوديان الممتدة نحوه من الداخل . وخلفه مرتفعات خضراء من الأمطار الموسمية . وحتى على القمم العالية تكبو الأمطار لنمو الأشجار النضرة . وفى هذا الإقليم ينمو بن مخا اليمنى المشهور ، الذى ترجع جودته — فى الغالب — إلى الضباب الذى ينتشر قبل زوابع الصيف ، مما يساعد على تزويد النبات بالرطوبة اللازمة ، ويخفف من حدة حرارة الشمس القوية صيفا . وتوجد مزارع عديدة على مدرجات فوق سفوح التلال . وهناك خزانات للمياه تستخدم للرى بالاضافة إلى الأمطار والضباب الكثيف . أما على السواحل الشمالية للبحر الأحمر فتقل البقاع الخصيبة . وينقسم الحجاز على العموم إلى قسمين رئيسيين يفصلهما جزء من الأرض غير آهل ، سطحه وصخوره من نوع الحرة ، ممتداً من الداخل حتى البحر الأحمر . وتقع الطائف إلى مسافة من مكة ، وهي واحة غنية تعتمد عليها مكة اعتماداً كبيراً فى غذائها .

أما العراق فنظراً إلى استواء سطحه واعتدال مناخه ، وإروائه بمياه دجلة والفرات ، فهو أرض خصيبة زراعية منذ القدم ينتج الشعير والفول والأرز والذرة والنخيل الذي ينمو نمواً باهراً ، حتي ليقال «إن أزهى النخيل وأوفره إنتاجا هو الذى ينمو بالعراق ومصر العليا » ويشتهر بالتمر على الخصوص إقليم شط العرب . ويصدر العراق ٨٠ ٪ من المجموع (أكثر من ١٣٠ الف طن فى المتوسط فى العام) .

أما الشام فينتمى بوجه عام إلى إقليم البحر المتوسط . ولكن بسبب تفاوت السطح والتربة تتنوع الغلات والنباتات . ففى السهول ينمو القمح والشعير والذرة

والذخن والشوفان والسمسم والخمس إلى غير ذلك . كما تنمو الخضراوات والزهور المختلفة . وعلى السفوح الواطئة . وكذلك فى السهول تنمو أشجار البرتقال والزيتون والفواكه الكثيرة. فاذا زاد الارتفاع نمت الأشجار الدائمة الخضرة مثل البلوط والأرز . كما تنمو الحشائش التى يرعى عليها ألوف الماشية والأغنام . وكلما اقتربنا من الصحراء جف العشب ونمت خصل الحلفاء حتى يكاد ينعدم إذا ما وصلنا الى صحراء الشام شرقا .

بعد هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين فى بلاد العرب الأقاليم الطبيعية الآتيـــة :

أولا ــ شبه الجزيرة نفسها ــ وتنقسم إلى الأقسام الآتية :

١ ــ الاقليم الشمالى ــ وهو قاحل ذو سطح حجرى فى الشمال ورملي فى الجنوب وتنمو به الحشائش فى بعض الفصول وأهله من البدو الرحل ويشتغلون بالرعى .

٢ ــ الاقليم الأوسط ــ ويشمل الحجاز ونجد والاحساء وأغلبه جاف حجرى أو مغطى بالرمال . أو تنمو عليه الأعشاب الفقيرة المسماة استبس . وبه قليل من العيون والآبار . إلا أنه فى الوديان أو حيث توجد التربة الخصبة يعيش أناس كثيرون على الزراعة.

٣ ــ الاقليم الجنوبى ــ ويشمل هضبات عسير واليمن فى الغرب والجبل الاخضر فى عمان فى الشرق. ومناخها معتدل نظرا إلى الارتفاع العظيم وقربها من البحار . والسكان فى هذه البلاد مستقرون ويعيشون على الزراعة فى الجهات الخصبة .

obeikandl.com

ثانيا ـــ الشام ـــ ويختلف مناخها باختلاف الجهات، ولكنه فى جملته يتبع إقليم البحر المتوسط فى مناخه ونباتاته . وأرض أخدود الاردن تكاد تكون مجدبة إلا من الكلأ القليل . وبعضها صحراء تقطنها قبائل رحالة ترعى الإبل والضأن والمعز.

ثالثا ـ أراضى دجلة والفرات ـ وهى متنوعة التضاريس . ففى الجنوب الأراضى سهلية إلا من أطلال قليلة الارتفاع هى آثار بابل القديمة . تنتهى بستقعات حول شط العرب. ملأى بالبعوض والحمى . ومناخ هذا الجزء يشبه مناخ الشام فى الشتاء ، إلا أن الأمطار أقل ، وفى الصيف أشد حرارة وجفافا . ولقد بلغ من جفافه في الصيف أن توقفت الزراعة هناك علي الري ، وحيث وجد الماء جادت الارض بغلات وفيرة . ولذلك نجد أن لهذا الجزء من العراق مستقبلا زراعيا عظيما. هذا هو العراق الأدنى الذى ينتهى شمالا بخط عرض بغداد ، أو شماله بقليل .

أما العراق الأعلى (آشور) فأكثر ارتفاعا ، وفيه وديان كثيرة ذات سطح مموج، تكسوها الحشائش فى الربيع ، ولكن كثيراً من الأراضي مجدب بسبب الرواسب الملحية والقلوية .

أما كردستان — فهي في الجهات الجبلية الوعرة في أقصى الشمال الشرقي ، ويعيش الاكراد هناك على الرعي ، وعلى الزراعة عند التقاء الوديان الصغيرة بدجلة ، وفي السهول المرتفعة الخصبية التي تسمى السليمانية .

أما الحافة الصحراوية — التي تنتهي بها سهول العراق نحو الغرب فسهول مرتفعة من الحصى والرمال يسودها الجفاف والقحل والملل .

obeikandl.com